فاعلية النسق في خطبة الإمام علي . كرم الله وجهه . في وصف الدنيا – قراءة نصية

م.د. عبد الله خليف خضير الحياني

كلية الآداب/ جامعة الموصل

The effectiveness of the pattern in the sermon of Imam Ali bin Abi Talib, God honored his face in the description of the world - a textual reading

Lec. Dr. Abdullah Khalif Khudair al-Hayani

abdullahkleef@yahoo.com

Abstract

The purpose of this study is to uncover the effectiveness of the structural structure in enriching the meaning of the text, its cohesion and its interdependence, because it is important in enriching the meaning of the text. It is a mechanism that contributes to the influence of the recipient because it is a constitutive and organizational element. The speeches of Imam Ali bin Abi Talib And in particular his speech in describing the world as the lengths of the pattern along the sermon to be divided into several sequences collected grammatical form and maintained by its active contribution to the negative diodes that show a clear comparison between the conditions of the world, the grammatical and semantic format contributed to enrich this significance and influence the recipient as well The role of building compositional text in enriching the meaning and breadth.

Keywords: sermon, Imam, Ali, minimum.

الكلمات المفتاحية: خطبة، إمام، علي، الدنيا.

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن فاعلية النسق البنيوي في اثراء دلالة النص وتماسكه وترابطه؛ لما له من أهمية في اثراء دلالة النص، فهو آلية تسهم في التأثير في المتلقي؛ لأنّها عنصر تأسيسي وتنظيفي في آن واحد، وكانت خطب الإمام علي **(كرم الله وجهه)** تمثيلاً واضحاً لهذه الفاعلية ولاسيما خطبته في وصف الدنيا، إذ امتدت الأنساق على طول الخطبة لتقسمها إلى متواليات عدة جمعها الشكل النحوي وحافظ على بنائها من خلال مساهمته الفاعلة في الثنائيات الضدية التي تعرض مقارنة واضحة بين أحوال الدنيا، فأسهم الشكل النحوي والنسق الدلالي في اثراء هذه الدلالة والتأثير في المتلقي فضلاً عن دور البناء التركيبي للنص في اثراء المعنى واتساعه.

النسق من اللغة الى الاصطلاح:

النسق لغة:

دلّ النسق في المعاجم العربية على الترتيب والانتظام جاء في معجم المقاييس: «**(نَسَقَ)** النُّونُ وَالسِّينُ وَالْقَافُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَتَابُعٍ فِي الشَّيْءِ. وَكَلامٌ نَسَقٌ: جَاءَ عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ قَدْ عُطِفَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ. وَأَصْلُهُ قَوْلُهُمْ: ثَغْرٌ نَسَقٌ، إِذَا كَانَتِ الأَسْنَانُ مُتَنَاسِقَةً مُتَسَاوِيَةً. وَخَرَزٌ نَسَقٌ: مُنَظَّمٌ»[1]، وجاء بهذا المعنى أيضا في لسان العرب: النَّسَقُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: مَا كَانَ عَلَى طَرِيقَةٍ نِظام وَاحِدٍ، عامٌّ فِي الأَشياء، وَقَدْ نَسَّقْتُه تَنْسِيقاً؛ وَيُخَفَّفُ. ونَسَقَ الشَّيْءَ يَنْسُقهُ نَسْقاً ونَسَّقه نظَّمه عَلَى السَّوَاءِ، وانْتَسَق هُوَ وتَناسَق، وَالاسْمُ النَّسَقُ، وَقَدِ انْتَسَقت هَذِهِ الأَشياء بعضُها إِلَى بَعْضٍ أَي تَنَسَّقَتْ. وَالنَّحْوِيُّونَ يُسَمُّونَ حُرُوفَ الْعَطْفِ حُرُوفَ النَّسَقِ لأَنّ الشَّيْءَ إِذَا عطفْت عَلَيْهِ شَيْئًا بَعْدَهُ جَرى مجْرَى وَاحِدًا، ويُقَالُ: ناسَقَ بَيْنَ الأَمرين أَيْ تَابَعَ بَيْنَهُمَا. وثَغْر نَسَق إِذَا كَانَتِ الأَسنان مُسْتَوِيَةً. ونَسَقُ الأَسنان: انْتِظَامُهَا فِي النَّبْتَةِ وَحُسْنِ تَرْكِيبِهَا. والنَّسْق: الْعَطْفُ عَلَى الأَول، وَالْفِعْلُ كَالْفِعْلِ. وَثَغْرٌ نَسَق وخَرزَ نَسَق أَي مُنْتَظِمٌ، والتَّنْسِيقُ: التَّنْظِيمُ. والنَّسَق: مَا جَاءَ مِنَ الْكَلامِ عَلَى نِظام وَاحِدٍ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لطَوار الحبْل إِذَا امْتَدَّ مُسْتَوِيًا: خُذْ عَلَى هَذَا النَّسَق أَيْ عَلَى هَذَا الطَّوارِ؛

(1) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين احمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت395هـ)، حققه وضع حواشيه: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان،ط2، 1429هـ - 2008م:556/2.

وَالْكَلامُ إِذَا كَانَ مسجَّعاً، قِيلَ: لَهُ نَسَق حَسَنٌ. والنَّسَقُ: كَوَاكِبُ مُصْطَفَّةٌ خَلْفَ الثُّرَيَّا، يُقَالُ لَهَا الفُرود. وَيُقَالُ: رأَيت نَسَقاً مِنَ الرِّجَالِ وَالْمَتَاعِ أَي بعضُها إِلَى جَنْبِ بَعْضٍ، والنَّسْق، بِالتَّسْكِينِ: مَصْدَرُ نَسَقْتُ الْكَلامَ إِذَا عَطَفْتَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ؛ وَيُقَالُ: نَسَقْتُ بين الشيئين وناسَقْتُ[1].

النسق اصطلاحا:

أمّا النسق في الاصطلاح فيشير إلى علاقات تستمر وتتحول بمعزل عن الأشياء التي تربط بينها، ويعمل النسق على بلورة منطق التفكير في النص، كما يحدد الأبعاد والخلفيات التي تعتمدها الرؤية[2]، ومنهم من يرى أنّه نظام ينطوي على استقلال ذاتي، يشكل كلاً موحداً، وتقترن كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها[3]. والنسق الصوتي يأتي بوصفه حصيلة تعاقب المقاطع المنبورة أو الخفيفة، أمّا الايقاعي فيعتمد على إيقاع المنظومات على وفق نماذج معينة[4]. وممّا تقدم يكون للنسق مَعنيانِ: أحدهما مادي والآخر معنوي، فالتنسيق هو التنظيم، ونسقتُ الكلام نسقًا: عطفتُ بعضه على بعض ورتَّبته، وهذا كلام متناسق، وقد تناسق. والنسق: مجموعة من العناصر يرتبطُ بعضها ببعض؛ بحيث تكون كلا منظمًا، وتتالت آراؤه في نسق فكري، وتناسقت وانتسقت، وتنسقت؛ أي تتابعتْ.

ونخلص من ذلك الى تعريف النسق على أنّه ترتيبُ أجزاءٍ شتى وتنظيمُها، من أجل الحصول على كلٍّ متماسك مترابط، أو تنظيمُ الأعمال في مؤسسة أو مشروع أو إدارة، على نحوٍ يكفُلُ حسنَ سيرها، ويحقق الانسجام بين عناصرها. والنسق اللفظي هو: الترتيب النَّحْوي للكلمات في الجملة أو العبارة.

خطبة الإمام علي – كرم الله وجهه – في وصف الدنيا:

تحاول هذه الدراسة الكشف عن فاعلية النسق البنيوي في اثراء دلالة النص وتماسكه وترابطه في خطبة الإمام علي **(كرم الله وجهه)** في وصف الدنيا؛ إذ نجد أنّها تعتمد على أساليب وتقنيات وظواهر معينة بغية التأثير في المتلقي واقناعه بالفكرة التي تحملها، ومن هذه الظواهر ظاهرة النسق، فالأنساق الثنائية ظهرت جلياً في عدد من النصوص ولا سيما تلك النصوص التي تعمد الى إقامة موازنات فكرية وعقدية لإبراز الفرق بين امرين أو أكثر، وهكذا تأثر هذه الأنساق في متلقيها وتثير اعجابه ودهشته لما تحمله من مضامين استطاعت الصمود كلّ هذا الوقت الطويل، ويبدو أنّ النص الذي بين أيدينا قد استمد خصوصيته من خصوصية صاحبه وتميزه، إذ عُرف الإمام علي **(كرم الله وجهه)** ببلاغته وبراعته، ولا سيما في القاء الخطب؛ ومن هنا رأينا أن يكون انموذج تطبيقنا نصاً من نصوصه الكثيرة؛ ذلك لقلة وريقات البحث؛ لذا التزمنا نصاً واحداً من نصوصه، فضيق البحث املى علينا ما نحن له كارهون وحسبنا أن نكون قاربنا أو اوشكنا ذلك، قال الإمام علي **(كرم الله وجهه)** في وصف الدنيا: **(مَا أَصِفُ من دار، أَوّلُهَا عَنَاء، وآخرها فناء! في حلالِها حِسَابٌ، وفي حرامها عقابٌ. مَنْ استغنى فيها فتن، ومَنْ افتقر فيها حزن، ومَنْ ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر عنها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته)**[5]، يبدو جلياً أنّ النص اعتمد في بنائه على الجملة الاسمية إذ توزعت دلالة النص داخلها، وشكّلت الجملة الاسمية الواردة في النص متواليات دلالية، إذ جاءت وصفاً للدنيا فوقعت في مواقع متقابلة، فالمركبات جميعها في هذه السلسلة ترتبط بمركب واحد، وهو **(ما اصف من دار)**، فضلاً عن ذلك وقعت هذه المتواليات في مواقع متوازنة؛ لأدائها

(1) ينظر: لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الانصاري الافريقي المصري (ت711هـ)، حققه وعلق عليه ووضع حواشية: عامر احمد حيدر، راجعه: عبد المنعم خليل ابراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط1، 1426هـ ـ 2005م: 177/5 – 178.

(2) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، عرض وتقديم وترجمة: د.سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني،بيروت – لبنان، سوشيريس،الدار البيضاء – المغرب،ط1، 1405هـ - 1985م:211.

(3) ينظر: عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، تأليف: أديث كيرزويل، ترجمة: جابر عصفور، أفاق عربية، بغداد ـ العراق، 1985م: 291.

(4) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: 211.

(5) ينظر: نهج البلاغة، للإمام علي بن ابي طالب (عليه السلام)، شرح الشيخ محمد عبده، مؤسسة الخرسان للمطبوعات، بيروت – لبنان ط1، د.ت: 89 - 90.

الوظيفة النحوية نفسها، فجملة **(ما اصف من دار)** إجمال، جاءت الجمل الاسمية تفصيلاً ووصفاً لها؛ لتبرز الرؤية التي أراد نقلها لنا الإمام علي **(كرم الله وجهه)**، ومن تأملنا للنص نرى أنّ البناء الشكلي للنص قد جاء على هذه الصورة:

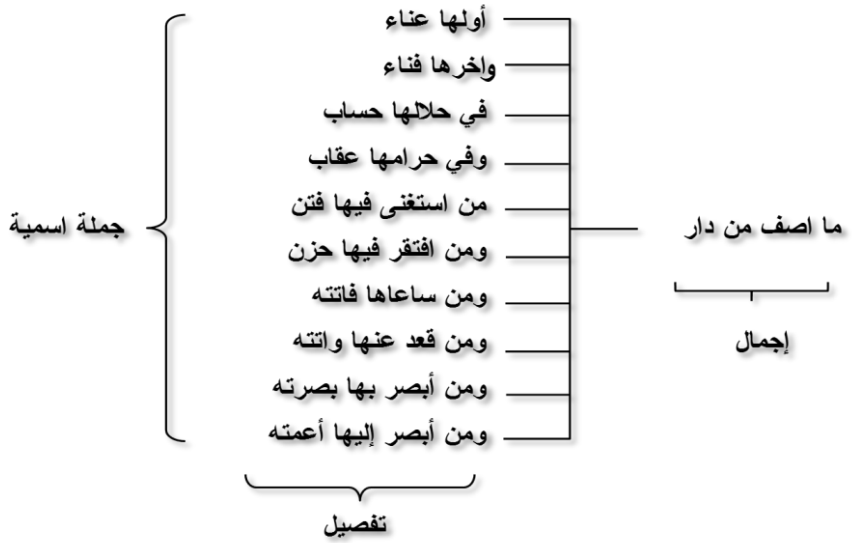

ومن هنا نرى أنّ الجمل قد شكّلت متواليات متوازنة، تماثلت فيما بينها، ومع ذلك نجد أنّ هنالك تماثلاً غير كامل يظهر في المتواليات التي شكلت أنساقاً ثلاثة، تمثل في النسقين الأول والثاني في الثنائيات التي تضمنتها، أمّا النسق الثالث فنجده أكثر حضورًا في هذا النص، إذ شكّل مهيمناً برز ليعرض لنا مقابلات ومقارنات استعان بها النص؛ ليعرض حال الدنيا مع صاحبها، ويمكن توضيح هذه الأنساق بهذا المخطط:

لو تأملنا هذه الأنساق لوجدنا أنّها قد شكلت ثنائيات متقابلة في مقابلة الجملة الأولى للجملة الثانية في النسق الواحد؛ وإتماماً للفائدة؛ ولفهم النص رأينا أن نقوم بقراءة وتحليل كلّ نسق على حدة يتم خلالها عقد مقارنة فيما بين الأنساق الثلاثة، ومقارنة بعضها مع بعض؛ ليسهل لنا فهم الرابط الذي يربطها جميعًا، والتماسك والتلاحم الذي نراه في لحمة النص.

1. النسق الأول:

أوّلُهَا عَنَاء

وآخرها فناء

نجد في هذا النسق أنّ التقابل قد وقع بين **(أولها)** و**(اخرها)**، وبين **(عناء)** و**(فناء)**، وظهر في هذا النسق أسلوب الطباق . وهو أسلوب بلاغي من المحسنات المعنوية، ومعناه: الجمع بين المتضادين، أي متقابلين في الجملة[1] . هنا بشكل جلي، واسهم الطباق في إيجاد مقابلة ثنائية، إذ وقع التقابل بين **(أولها)** و**(اخرها)**، فضلاً عن ذلك أسهم الجناس . وهو أسلوب بلاغي من المحسنات اللفظية، ومعناه: أن يتشابه اللفظان في اللفظ[2] . في تعزيز المقابلة، وذلك من خلال الجناس الواقع بين **(عناء)** و**(فناء)**، وهذا الجناس يسمى لاحقًا؛ لأنّ الاختلاف الحاصل بين اللفظين كان في حرفين غير متقاربين، ووقع الاختلاف في بداية الكلمة بين الحرفين **(العين)** و**(الفاء)**[3].

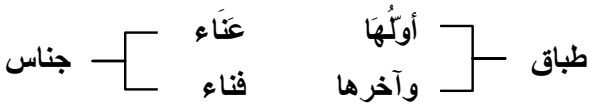

واعتمد الطباق والجناس على البناء النحوي؛ لإظهار هذه الثنائية[4]، إذ كان أساس المتواليتين المكونتين لهذا النسق الجملة الاسمية، فتماثلت المتواليتان في بنيتهما النحوية، وكان التركيب النحوي لهما معتمدًا في أساسه على:

مبتدأ + ها + خبر

2. النسق الثاني:

في حلالها حساب

وفي حرامها عقاب

تبدو المقابلة بشكل واضح في هذا النسق، إذ اعتمدت على أسلوب الطباق الذي وقع بين **(حلالها)** و**(حرامها)**، أمّا البناء النحوي في هاتين المتواليتين فكان معتمدًا على الجملة الاسمية، إذ اعتمد في أساسه التركيبي على:

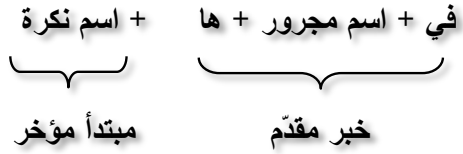

أسهم الطباق في إيجاد ثنائية وقعت بين المتواليتين، وجاء ليعززها وليعمق حضورها.

لو وازنا بين النسقين الأول والثاني لوجدنا أن المتواليتين في النسق الأول قد خالفتا المتواليتين في النسق الثاني، وعلى هذا الشكل الذي يوضحه المخطط الآتي:

(1) ينظر: الايضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني (ت739هـ)، حققه وعلق عليه وفهرسه: د.عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، ط2، 1425هـ - 2004م: 288/3.
(2) ينظر: المصدر نفسه: 323/3.
(3) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: 326/3.
(4) لنا وقفة مع الثنائيات الضدية؛ لأنّها قد شملت النص؛ لذلك آثرنا تأخير الحديث عنها لما بعد الانتهاء من تحليل الأنساق الثلاثة.

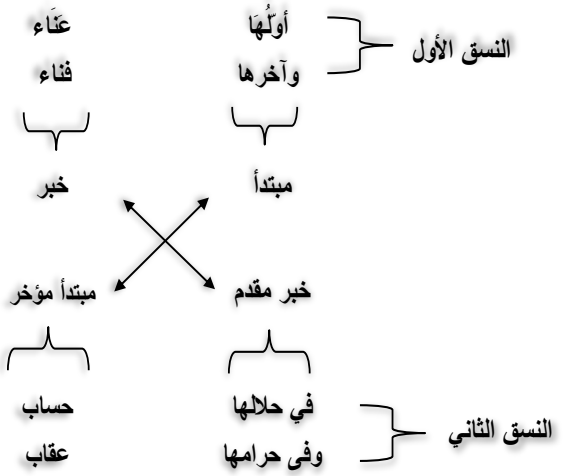

فكان هذا التخالف لدفع السأم عن المتلقي عبر التنويع في استعمال الجمل من تقديم وتأخير؛ ولتدعيم دلالة النص عبر الثنائيات الواردة في النسقين، فضلاً عن ذلك اتخذ هذا الاستعمال شكلاً متقابلاً بين النسقين، فشكلا بذلك ثنائية ضدية أسهمت في تعزيز الثنائية الداخلية، افاد في ذلك من البناء النحوي، مع المحافظة على الجملة الاسمية في النسقين.

3. النسق الثالث:

من استغنى فيها فتن
ومن افتقر فيها حزن
ومن ساعاها فاتته
ومن قعد عنها واتته
ومن أبصر عنها بصرته
ومن أبصر إليها أعمته

نجد في هذا النسق أنّ التقابل قد حافظ على حضوره وبشكل فاعل، إذ انقسمت متواليات على شكل ثنائيات متقابلة، واعتمد في ذلك على أسلوب المقابلة، وهو أسلوب بلاغي من المحسنات المعنوية، وهي أن تجمع ببين شيئين متوافقين أو أكثر وضديهما[1].

من استغنى فيها فتن — **مقابلة**
ومن افتقر فيها حزن

لما جعل الاستغناء . وهو من الغنى، ضد الفقر . مشتركاً مع الفتنة، وهي بمعنى الابتلاء والامتحان والاختبار، وجعل ضده، وهو الافتقار مشتركا مع الحزن . وهو نقيض الفرح، وهو خلاف السرور . وجاء أسلوب الطباق؛ لتعزيز هذه المقابلة، فوقع بين **(استغنى)** و**(افتقر)**، وبين **(فتن)** و**(حزن)**، وما كان هذا إلاّ للتركيز على الثنائية في النص وإظهارها بشكل واضح للمتلقي.

أمّا في قوله: **(ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واتته)**، فالطباق وقع بين **(ساعاها)** و**(قعد)**، وبين **(فاتته)** و**(اتته)**، ولا يخفى أسلوب المقابلة الذي ضم في ثناياه أسلوب الطباق، وما كان ذلك إلاّ إيغالاً في الثنائية وتركيزاً عليها.

(1) ينظر: مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي (ت626هـ)، حققه وقدم له وفهرسه: د. عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، 2011م: 533.

لو تأملنا الأفعال في هذا النسق بمجموعه لرأينا أنّها . وإن تماثلت في استعمالها، إذ كانت بنية داخلية للجمل الاسمية التي هيمنت على النص، إلاّ أننا نجد أنّ ثمة تغاير حدث في المتواليتين **(ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واتته)** عن بقية المتواليات، إذ جاء الفعلان فيهما مغايرين عن الأفعال في بقية المتواليات، فكلا الفعلين **(ساعاها)** و**(قعد)** غير مهموزين كما في بقية الأفعال في المتواليات الأخرى التي جاءت أفعال مزيدة ومن حروف الزيادة فيها الهمزة **(استغنى، افتقر، ابصر)**، وجاء هذا التغاير ليمثل حلقة فصل بين النسق، فيجعله على شكل ثنائيات متوافقة.

ولو تأملنا استعمال الأفعال في النسق مرة أخرى، لوجدنا أنّ الفعل **(ساعاها)** قد تمايز عن بقية الأفعال، إذ استعمل استعمال الفعل المتعدي، وإن كان الأصل فيه أن يقول: **(سعى إليها)**، فعدل عن ذلك التعدي إلى المفعول به بلا وساطة وأظهره مظهراً مخالفاً عن بقية الأفعال التي استعملت استعمال الأفعال اللازمة، وكان متعلقها شبه جملة **(استغنى فيها، وافتقر فيها، ابصر بها، ابصر اليها)**، فكان هدف الإمام علي **(كرم الله وجهه)** بهذا الانزياح إظهار شدة طلب الإنسان للدنيا، فكان سعيه اليها مباشراً، فضلاً عن ذلك استعمل الفعل على وزن **(فاعل)** وهذا الوزن يدل على المشاركة، وهو يدل على اثنين، فالحدث الذي تضمنته صيغة **(فَاعَل)** هو واقع من اثنين، كلّ واحد منهما أحدث على الآخر ما أحدثه الآخر عليه، فعلى سبيل المثال قولنا: **(ضَارَبَ)** على وزن **(فَاعَل)**، فـ**(ضَارَبَ زَيْدٌ عَمْرًا)** دَلّ **(ضَارَبَ)** على مشاركة الاثنين الذَيْنِ بعده في أصل الحدث وهو الضرب، فزيد أوقع ضربًا على عمرو، وعمرًا مفعول به أوقع ضربًا على زيد، إذًا الفعل يدل على المشاركة بين اثنين، وإذا أردت أن تدل على أن الحدث وقع بين اثنين كل منهما أوقع ما أوقعه الآخر عليه فأت بالفعل على وزن **(فَاعَل)**، وقَلَّ في لسان العرب أن يأتي **(فَاعَل)** ويراد به شخص واحد، أو يراد به أن الحدث صدر من جهة واحدة، مثل (عَاقَبْتُ اللِّصّ)، فـ**(عَاقَبَ)** على وزن **(فَاعَلَ)**، فعَاقَبْتُ اللِّصَّ يعني: أنا أوقعتُ العقوبة على اللصّ. واللصّ لم يوقع شيء عليه إذًا ليست على بابها[1]، فاظهر الإمام علي **(كرم الله وجهه)** الإنسان والدنيا في عملية سعي متبادلة بينهما، يحاول الانسان أن يتجاوزها ومع ذلك فإنّ الدنيا ففاتته، وهذه الفكرة للإمام عليّ **(كرم الله وجهه)** قريبة من الرسول **(صلى الله عليه وسلم): ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَيَسِّرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدَّلْجَةِ))**[2]، فاظهر الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** من أساء فهم الدين وكأنّه في عملية صراع معه، وهنا في نص الإمام علي **(كرم الله وجهه)** ظهر الإنسان في حالة صراع مع الدنيا التي تنتصر دائماً على من طلبها؛ لذلك استعمل الفعل **(فاتته)**، أي تركته وحيداً وخسر ما طلبه منها.

ولو تأملنا الثنائية الثالثة في هذا النسق لوجدنا أنّها اعتمدت على المتعلق النحوي في إيجاد التمايز الدلالي بين الفعل **(أبصر)** في الثنائية إذ استعمل مرتين لكن بدلالة مختلفة **(أبصر بها، أبصر إليها)** فالمتعلق النحوي – شبه الجملة – **(بها، إليها)** قد اثر في دلالة الفعل فـ**(أبصر بها)** بمعنى فهمها وعرفها على حقيقتها، و**(أبصر إليها)** بمعنى طلبها وأرادها بشدة[3]، فمن أبصر بها وعرفها

(1) ينظر: عون المعبود في شرح نظم المقصود في الصرف، لأبي عبد الرحمن إبراهيم بن محمد الفقيه القادمي السريحي اليمني، دار عمر بن الخطاب للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، مكتبة الامام الوادي، صنعاء - اليمن، ط1، 1428هـ - 2007م: 55 – 56.

(2) سنن النسائي، لاحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي (ت303هـ)، باشراف ومراجعة فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم آل شيخ، دار الفيحاء - دمشق، دار السلام - الرياض، ط1، 1420هـ - 1999م: 691.

(3) أبصر الشيء، وبصر به وقد بصر بعمله إذا صار عالماً به وهو بصير به وذو بصر وبصارة، وهو من البصراء بالتجارة. وبصرته كذا وبصرته به إذا علمته إياه، وتبصر لي فلاناً وهو مستبصر في دينه وعمله. وعمى الأبصار أهون من عمى البصائر. وبصر فلان وكوف، ومن المجاز: هذه آية مبصرة. وأبصر الطريق: استبان ووضح. ورتبت في بستاني مبصراً أي ناظراً وهو الحافظ. وأريته لمحاً باصراً أي أمراً مفزعاً، وأرأني الزمان لمحاً باصراً.

وعرف حقيقتها بصرته وزادت من بصيرته ورؤيته لقبحها، ومن أبصر اليها أي أطال النظر إليها، وهو استعمال دلالي يشير إلى محبتها وطلبه لها، فَيُقَالُ: **(أَشَاحَ بِوَجْهِهِ)**، أَيْ أَعْرَضَ أي لم يرغب بالشيء فحول نظره عنه، وإذا نَحَّى الرجلُ وجهَه عَنْ وَهَجٍ أَصابه أَو عَنْ أَذًى، قِيلَ: قَدْ أَشاح بِوَجْهِهِ[1]، وهذا المخطط يظهر الثنائيات الثلاثة في هذا النسق:

من استغنى فيها فتن
ومن افتقر فيها حزن ← الثنائية الأولى

ومن ساعاها فاتته
ومن قعد عنها واتته ← الثنائية الثانية

ومن أبصر عنها بصرته
ومن أبصر إليها أعمته ← الثنائية الثالثة

لو تأملنا هذا النسق بأكمله لوجدنا أنّه وإن كان تماثله في الجملة الاسمية التي بني عليها النسق إلاّ أنّه اتخذ شكلاً آخر من التماثل، إذ اعتمد على الاسم **(من)** الذي شكل وحدة دلالية لها معنيان أسهما في إثراء دلالة النص وتماسكه وانسجامه، أمّا المعنى الأول فأن تكون **(مَنْ)** شرطية، ومن هنا نجد أنّ هذا النسق قد اعتمد في أساسه التركيبي على أسلوب الشرط الذي شكّل مقابلات داخلية بين فعل الشرط وجوابه، فضلاً عن ذلك أسهم في ترابط النص إذ شغل المتواليات جميعها، فكان البناء النحوي لها:

أداة الشرط (مَنْ) + فعل الشرط + ها + جواب الشرط

أداة الشرط	فعل الشرط	جواب الشرط
من	استغنى فيها	فتن
ومن	افتقر فيها	حزن
ومن	ساعاها	فاتته
ومن	قعد عنها	واتته
ومن	أبصر عنها	بصرته
ومن	أبصر إليها	أعمته

فاعتمد الطباق على البناء النحوي في تدعيم الثنائيات، واظهارها، إذ كان الأساس النحوي في هذا النسق الجملة الاسمية، التي جاءت مرتبطة بأسلوب نحوي هو أسلوب الشرط، فـ**(مَنْ)** اسم شرط وقع في محل رفع مبتدأ، اما فعل الشرط وجوابه فوقعا في محل رفع خبر[2] للمبتدأ **(من)**؛ وبذلك حافظت الجملة الاسمية على حضورها مع التغاير الشكلي لهذا النسق عن بقية الانساق الأخرى، واعتمد

واجعلني بصيرة عليهم أي رقيباً وشاهداً، كقولك: عيناً عليهم. وأما لك بصيرة في هذا أي عبرة، ينظر: أساس البلاغة، لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط1، 1422هـ ـ 2001م:44-45.

(1) ينظر: لسان العرب: 280/2.

(2) اختلف النحاة في خبر اسم الشرط فمنهم من ذهب إلى أنّ فعل الشرط هو الخبر ومنهم من ذهب إلى أنّ فعل الشرط وجوابه هما الخبر، وربّما كان سبب الخلاف أنّ احد الفريقين نظر الى الجملة من جهة الاسناد، والفريق الآخر نظر اليها من جهة المعنى ذلك أنّ الجملة تعرف بالفائدة ولا تكون فائدة تامة دون جواب الشرط. ينظر: مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، للإمام أبي محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن احمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري المصري

هذا النسق على أسلوب الشرط إذ يعد من الأساليب النحوية التي تعبر عن المقابلة والمقارنة بين شيئين؛ من هنا نجد انه عمد إلى إقامة مقارنات ومقابلات في هذا النسق حاله في ذلك حال الأنساق الأخرى، لكننا هنا نجد تمايزاً أسلوبياً عن بقية الأنساق الأخرى، فبعد أن عمد إلى أسلوبين بلاغيين هما **(الطباق)** و**(الجناس)** في النسقين الأول والثاني، أضيف إليهما في النسق الثالث أسلوبين اخزين الأول بلاغي تمثل في **(المقابلة)**، والثاني نحوي تمثل في أسلوب الشرط، وما كان ذلك إلاّ ايغالاً في إظهار الثنائية؛ ولإدخال المتلقي في مقابلات ومقارنات متنوعة تسهم في إخصاب خياله والتأمل فيها.

أمّا المعنى الثاني لـ**(مَنْ)** فأن تكون موصولة؛ ومن هنا نجد أن التنوع الدلالي لـ**(مَنْ)** قد اعطى ثنائية أخرى فهي يمكن ان تكون شرطية، كما يمكن ان تكون موصولة، فكانت الثنائية بارزة حتى في استعمال وحدات نحوية تسهم في تعزيزها وتقويتها، فكانت **(مَنْ)** وحدة نحوية لها دورها الفاعل في تعميق دلالة الثنائية، فنجد أن التماثل بين **(مَنْ)** الموصولة و**(مَنْ)** الشرطية قد وقع في تماثلهما في الموقع الاعرابي، إذ وقعت **(مَنْ)** الشرطية في محل رفع مبتدأ، وجملة فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر لها.

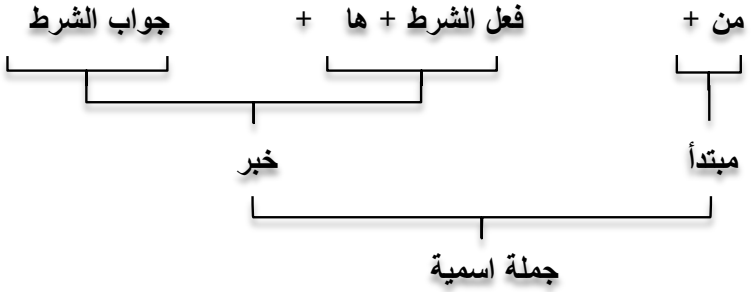

أمّا **(من)** الموصولة فوقعت كذلك في محل رفع مبتدأ، وجاءت بعدهما جملة صلة الموصول لا محل لها من الاعراب، ثم بعد ذلك جاءت جملة فعلية وقعت في محل رفع خبر للمبتدأ **(من)**.

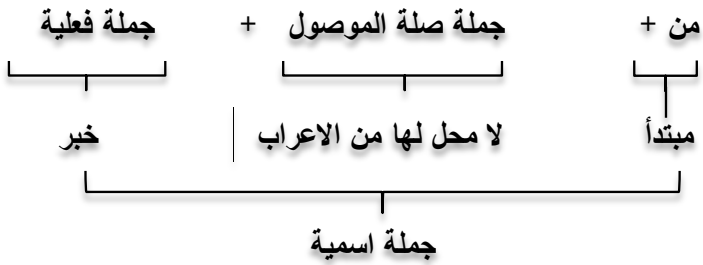

ومع هذا التماثل إلاّ أننا نجد أن هناك اختلافاً جوهرياً بينهما فـ**(من)** الشرطية جعلت جملة فعل الشرط وجوابه ثنائية ربطت بينهما عبر الجزاء، ولم تجعل الحكم **(الخبر)** ثابتاً على المبتدأ، كما هو الحال في **(من)** الموصولة التي اثبتت الخبر للمبتدأ، وجعلته حكماً خاصاً به، فضلا عن ذلك فإن **(من)** الموصولة تكون مبهمة، فتأتي جملة صلة الموصول لتوضحه ولتعطيه بعده الدلالي، إذ إنّ الاسم الموصول لاستعماله فوائد كثيرة منها عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به سوى الصلة، أو للإبهام[1]، وكان لاستعمال الاسم الموصول **(من)** دون الأسماء الموصولة الأخرى فائدة مهمة فـ**(من)** من الأسماء الموصولة المشتركة أي لا تقع على معنى واحد وتختص به، إنّما تدل على معان عدة، فهي تستعمل للمفرد والمثنى والجمع المذكر والمؤنث؛ وبذلك شمل أشخاصاً أكثر ممّا تشمله بقية الأسماء الموصولة[2].

(ت761هـ)، تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد، دار الطلائع، القاهرة ـ مصر، (د.ط)، 2005م: 158/2، وثلاث رسائل في النحو، لابن هشام الانصاري (ت761هـ)، تحقيق: نصر الدين فارس، وعبد الجليل زكريا، دار المعارف للتأليف والترجمة والنشر، حمص، ط1، 1987م: 18 – 19.

(1) ينظر: معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط1، 1420هـ - 2000م: 119/1 – 121.

(2) ينظر: المصدر نفسه: 123/1.

ولو تأملنا هذا النسق مرة أخرى لوجدنا أن بناءه النحوي قد شكّل توازياً تركيبياً اعتمد في أساسه على الجملة الاسمية، مع الثنائية الواضحة في نواته، فكان الأساس التركيبي له:

.1

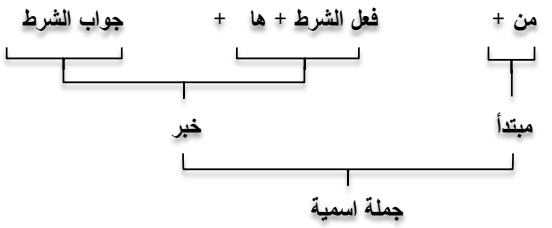

.2

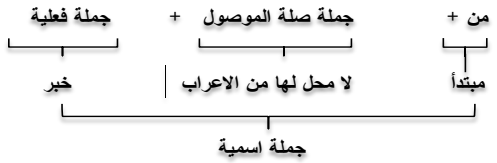

من هنا بدت الثنائية واضحة من خلال استعمال الاسم **(من)** الذي أعطى لهذه الثنائية بعداً دلالياً عبر التنوع في المعاني مع المحافظة على البناء النحوي للجمل.

ولو عدنا مرة أخرى الى هذا النسق لوجدنا أن الأفعال وإن تماثلت في كونها افعالاً ماضية إلاّ أنّها استعملت استعمالاً دقيقاً جعلها بنية تهدف إلى تقسيم النسق على الثنائيات المتوازية، إذ نجد أن الاستعمال **(استغنى، افتقر، أبصر، أبصر)** قد استعملت أفعالاً مهموزة (تبدأ بالهمزة)، أمّا الفعلان **(ساعاها، قعد)** فلم يكونا مهموزين، توزعت الأفعال في هذا النسق على هذا الشكل:

لم يهمز الفعلان

مزيدة بالهمزة

- **من استغنى فيها فتن**
- **ومن افتقر فيها حزن**
- **ومن ساعاها فاتته**
- **ومن قعد عنها واتته**
- **ومن أبصر عنها بصرته**
- **ومن أبصر إليها أعمته**

فصلت الثنائية الثانية المؤلفة من الفعلين **(ساعاها، قعد عنها)** بين الثنائيتين المؤلفتين من الأفعال **(استغنى فيها، افتقر فيها، أبصر بها، أبصر إليها)**، فجاءت هذه الثنائية إيغالاً في إظهار ثنائية تعامل الإنسان مع الدنيا منهم من يطلبها ومنهم من طلبته، فضلاً عن ذلك جاءت هذه الثنائية لإبراز أهمية انحلال النص والتغيرات التي تطرأ عليه وعلى العمل الأدبي بعد اكتماله، فالنسق يعاين من حيث هو عملية معقدة ثنائية، أي انّها في جذورها تتبع من تمايز ظواهر معينة في جسد النص أو الحكاية ثم تكرارها عدداً من المرات ثم انحلال هذه الظواهر واختفائها، بهذه الصفة يكسب النسق طبيعة جدلية، إذ إنّ من الواضح أنّ التكرار ظاهرة نهائية؛ لأنّ لا نهائية تعني انتهاءه، إذ إنّها تمنع التمايز والتضاد اللذين لابد أن يتوفرا من اجل أن يتشكل نمط ما بالدرجة الأولى، فاكتمال النسق وانحلاله شرطاً أساسياً لفاعليته، ويصبح طبيعياً أن نتكهن في أي عمل أدبي أصيل بأنّ أي نسق يشكل لابد من أن ينحل لينشأ عبر التغاير **(أي الحضور والغياب)** لبنية تقوم على ثنائية ضدية تتبع من التمايز بين عنصرين أساسيين، وقد يفسر ما يقال هنا جزءاً من حيوية **(ديناميكية)** عملية التلقي الأدبي، ويجلو سر عنصر رئيسي في الفن هو عنصر التوقع وعنصر آخر مرتبط به ونابع منه هو عنصر

المفاجأة التي تستند أساساً إلى تغذية التوقع وتنميه ثم اخراج البنية عن مسارها المتوقع وخلخلة بنية التوقعات المشكلة في ذهن المتلقي[1]؛ من هنا تبرز أهمية هذه الثنائية في هذا النسق.

مع هذا التغاير وخلخلة بنية التوقع نجد أن التماثل قد عاد من جديد عبر نسق التكرار الذي أفاد من الضمير الهاء، إذ تكرر في نهاية المتواليات الأربع الأخيرة [الثنائيتان (3) و(4)] فضلاً عن ذلك نجد أنّ الفاصلة قد أسهمت بنوع من التغاير من جهة أخرى إذ نجد أنّها تماثلت بين الثنائيتين (2) و(3) وتغايرت في الثنائية (1) عن بقية الثنائيات.

الثنائيات الضدية:

لا بد لنا من الوقوف على مصطلح **(الثنائيات الضدية)** ذلك أنّها امتدت على طول النص وشكلت ملمحاً مهما من ملامح النص، فقد ورد في معجم مقاييس اللغة: «(ثَنَيَ) الثَّاءُ وَالنُّونُ وَالْيَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ تَكْرِيرُ الشَّيْءِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ جَعْلُهُ شَيْئَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ أَوْ مُتَبَايِنَيْنِ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ ثَنَيْتُ الشَّيْءَ ثَنْيًا. وَالاثْنَانِ فِي الْعَدَدِ مَعْرُوفَانِ. وَالثَّنَى وَالثُّنْيَانُ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ السَّيِّدِ، كَأَنَّهُ ثَانِيهِ»[2]، وورد في لسان العرب: «ثَنَى الشيءَ ثَنْياً: ردَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، وَقَدْ تَثَنَّى وانْثَنَى. وأَثْناؤُه ومَثَانِيه: قُواه وَطَاقَاتُهُ، وَاحِدُهَا ثِنْي ومَثْناة ومِثْناة؛ عَنْ ثَعْلَبٍ. وأَثْنَاء الحَيَّة: مَطاوِيها إذا تَحَوَّتْ. وثِنْي الْحَيَّةِ: انْثِنَاؤُها، وَهُوَ أَيضاً مَا تَعَوَّج مِنْهَا إذا تَثَنَّتْ، وَالْجَمْعُ أَثْنَاء»[3]؛ ومن هنا نرى أنّ الثنائية تدل على تكرار الشيء أو جعله شيئين متواليين أو متباينين، أو رد بعضه على بعض، وهو يقترب من المفهوم الاصطلاحي إذ يرى محمد الهادي الطرابلسي في التضاد أنّه استعمال لفظين اثنين متضادين بحكم الوضع اللغوي لا يشترك معهما في ذلك ثالث[4].

أمّا الثنائيات الضدية في الفكر الفلسفي فإنّها تقوم على فكرة أنّ ثمة قدرة على الربط بين الظواهر التي يبدو أنّها منفصلة، فالتضاد رابطة مثل التماثل، والتناقض رابطة؛ لأنّه يعني نفي النقيض، فوجود النور ينفي وجود الظلام؛ لذا يدخل النور والظلام في علاقة تناقض، أمّا وجود الأبيض فيتضاد مع الأسود، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد، فالحالتان المتضادتان إذا تتالتا، أو اجتمعتا معاً في نفس المدرك كان شعوره بهما أتم وأوضح، وهذا لا يصدق على الإحساسات والإدراكات والصور العقلية فحسب بل يصدق على جميع حالات الشعور كاللذة والألم والتعب والراحة، فالحالات النفسية المتضادة يوضح بعضها بعضاً، وبضدها تتميز الأشياء، وقانون التضاد أحد قوانين التداعي والتقابل[5].

وتكمن أهمية الثنائيات الضدية في تفعيل النص الأدبي وفي إضفائها حركية وحيوية عليه، ودورها في الإقناع والتأثير، وإنتاج الدلالة .وتكشف أيضا عن جمالياتها في هذا النص، وما تقدمه فيه من دهشة ومفاجأة، و ما تقوم به من ربط بين المتناقِضين وتفاعل بينهما وتناسب بين المعاني على الرغم من الضدية' ويمكن عدّ التضاد سمة من سمات الانحراف الاسلوبي، إلاّ إنّه في نص خطبة الإمام عليّ **(كرم الله وجهه)** اكتسب استراتيجيته المؤثرة من خلال طبيعته العلائقية، وليس من خلال المفهوم التقليدي الضيق للمقابلة والطباق، إذ توزعت الثنائيات الضدية الى ازواج أو في مجموعات على حسب الدلالة، كما تنوعت من حيث توظيفها واستعمالها، إذ تجلت هذه الثنائيات بين الكلمة والكلمة، وبين الجملة والجملة فوسعت نص الخطبة بأكمله، ويعكس هذا التنوع الثراء الدلالي في النص كما يعكس تجربة الإمام عليّ **(كرم الله وجهه)** وعمقها، كما تعكس براعته اللغوية، إذ استطاع أن يوظف امكانيات التضاد في التأثير في المتلقي كما عبر التضاد عن التماسك والترابط في النص عبر التعالق النصي بين المتضادين[6].

(1) ينظر: جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر، كمال أبو ديب، دار العلم للملاين، بيروت – لبنان، ط1، 1979: 109 – 110.
(2) ينظر: معجم مقاييس اللغة: 1/ 200.
(3) ينظر: لسان العرب: 108/8.
(4) ينظر: خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، د.ط، 1981م: 98.
(5) ينظر: الثنائيات الضدية - دراسات في الشعر العربي القديم، د. سمر الديوب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، د.ط، 2009م: 5.
(6) ينظر: (استراتيجية التضاد وعلاقتها بالنزعة الصوفية في شعر عبد الله العشي)، لخميس شرفي، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والادب الجزائري، جامعة محمد خضير – بسكرة – الجزائر، ع7، 2011م: 271.

الخلاصة:

خلص البحث من خلال ما عرضناه الى وجود اليات نصيه تهدف الى تماسك النص وانسجامه، واعتماد الموازنة عبر إيجاد موازنات عدة وبأساليب مختلفة من أساليب نحوية منها اسلوب الاستثناء، الى أساليب بلاغية منها المقابلة والطباق وأسلوب الاجمال والتفصيل، ومن أساليب دلالية منها الثنائيات والتضاد، فضلا عن استعمال الأفعال صرفياً بما يتناسب مع دلالة النص وفكرته الرئيسة، فامتدت هذه الاساليب على طول النص محافظة على تماسكها وتوزيعها في خط مستقيم ولم تتقاطع فيما بينها، إنّما ولدت تفاعلاً دلالياً نتج عنه بناء نصي متماسك سُبك سبكاً واحدا، وافرغ في غالب واحد ألا وهو الجملة الاسمية التي كانت المحرك الأساس في بناء النص وتماسكه فضلاً عن دورها في ايجاد متقابلات دلالية بين المبتدأ وخبره.